

ادريس الامام منشئ دولة وبعث دعوة

• عبد اللطيف السعداني

يدعوني لبحث هذا الموضوع أكثر من داعٍ. لهذه المرحلة الحاسمة من تاريخ العقيدة في بلاد المغرب لم تتوفر لها العناية من الباحثين المغاربة، بل لقد قلل المؤرخون من شأنها وسكتوا عن تفاصيلها، ومروا عليها سراعاً كأن لم تكن سوى سحابة صيف أو ريحاً عارضا، مما يثير الشك في أن هذا التجاهل مقصود. ويراودنا الظن - في أحسن الاحتمالات - أن المصادر الأساسية التي أرخت للدراسة قد أهلمت حتى ضاعت، إن لم نقل أتلفت، استمراراً للترصد لآل البيت. ثم تلك الوقفات التي تستوقف الناظر في هذا التاريخ، المقلب لأطواره، الباحث في تفاصيله وتناقضاته، أو السامع لرواياته، فتثير فيه التساؤل والضحج في بعض الأحيان، وتعوقه عن فهمه. وما أكثر تلك الوقفات. وما أكبر خطورتها، وأدق معانيها، وأبلغ امتداد أثرها. وأخيراً؛ فإن تلك الحكومة التي أقامها المولى ادريس، هي أول حكومة اسلامية شرعية لآل البيت في بلاد بعيدة عن جزيرة العرب. وللمغرب في احتضانها الفخر كل الفخر.

في مطلع هذا القرن الخامس عشر الهجري الجيد ونحن نتطلع إلى عالم اسلامي مزدهر، ونترقب النموذج المثالي منه، في عالم ضاعت فيه المثل، يلزمنا التفكير في العقيدة التي بنت الشخصية الاسلامية في أحسن تقويم. وعدلتها في أحسن تعديل. ويجب إعادة تقييم الآثار التاريخية والاجتماعية والفكرية والنفسية لهذه العقيدة.

ولكي نتصور نموذجاً بطولياً للإيمان بهذه العقيدة، فلنتمثل ذلك المسرح الذي خاض غمار تقلباته آل البيت لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، وجابهه العلويون لدفع الضيم، ورد الظلم، واقرار الحق والعدل لكافة المسلمين على مدى التاريخ الاسلامي.

وقت صلاة الصبح^(١) من يوم السبت ثامن ذي الحجة (يوم التروية) سنة تسع وستين ومئة، اندفعت عصابة من آل البيت الكرام، بعد صبر، وبعد فكر وروية، لتقف في وجه الظلم، فتحارب جيوشه في "فخ" بجانب الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومن الذين هبوا لنصرته فحاضوا هذه الحرب معه عمه ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. في معركة ملحمة أبلى جميع المشاركين فيها البلاء الحسن، وقتل فيها الكثير، وجزت الرؤوس. وشهد شهود فيما بعد ببطولة المولى ادريس واستماتته في القتال.. وتقف الرواية هنا. لبدأ الغموض. وتبعه سلسلة من الأخبار المتغايرة، المتناقضة في بعض الأحيان. فلا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المولى ادريس قبل هذه الواقعة. إلا أن أمه هي عاتكة بنت عبد الملك بن الحرث الشاعر ابن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي^(٢). وأخواه منها عيسى وسليمان. وأن له أختاً أكبر منه اسمه ادريس أيضاً، واسم أمه هند بنت أبي عبيدة^(٣) بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي^(٤). فهذا، المولى ادريس الأصغر، وذاك ادريس الأكبر. وأخواه منها أيضاً محمد النفس الزكية وموسى. أما أخواه يحيى وابراهيم فأمهما قريية بنت عبد الله، وهو ذبيح بن أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي. كان المولى ادريس حدثاً في أيام أبي جعفر المنصور^(٥). وكان في وقعة فخ فارساً شهماً. وبُعدها "فتى" يرعاه ويحرص على السهر على مصالحه ومصالح الأمة فيه وأحواله، ويدبر ويفكر لنجاته، ويتولى الكلام عنه كلما لزم الأمر؛ الرجل الغيور الصبور الوقور راشد. فهو الذي خرج به يستره بلباس غلام ويأمره فيأتمر له، ليخفي حقيقته عن أعين الرقباء. وتساعد سنُّ الفتى ادريس على هذا المظهر الذي كساه به راشد. فلا يُشك في أمرهما. فراشد إذ يكلم صاحب مضر. ويرغب إليه معونتهما على النجاة، يقول: .. وقد جئت به أريد بلاد البربر... " وحينما

(١) مقاتل الطالبين ص ٤٥٠.

(٢) مقاتل الطالبين ص ٤٨٧.

(٣) اقتصر ابن الأبار على القول عنها: هند بن أبي عبيدة المطلبية. ناقلاً ذلك عن: أبي حسن بن أبي سعيد عبد الرحمن بن عميد القيرواني المعروف بالوكيلي في كتابه: المغرب عن أخبار المغرب، واختصره منه، الحلة السرياء. الجزء ١ الصفحة ٥٠.

(٤) مقاتل الطالبين ص ٤٦٣.

(٥) يتضح من ذلك من الخبر الذي نقله أبو الفرج الأصفهاني كما يلي: "إن أبا جعفر لما قبض أموال عبد الله بن الحسن، حج، فصاحت به عاتكة بنت عبد الملك - وهي أم عيسى وسليمان ادريس بن عبد الله بن الحسن - وهي تطوف في ستارة: يا أمير المؤمنين! ايتامك بنو عبد الله بن الحسن، مات أبوهم في حبسك، وأمرت بقبض ضياعهم. فأمر أبو جعفر بردها عليهم. مقاتل الطالبين ص ٣٩٦.

يقبل مساعدتهما يقول لراشد: ". وها هنا طريق أعرفها لا يسلكها الناس فأنا أحمل هذا "الفتى" يعني ادريس^(١). من غير أن نتبين ملاحظة أو رأياً موافقاً أو مستوضحاً للمولى ادريس. فهذا الوصف بالفتى التي ذكر هنا يعني مرحلة الشباب الذي قد يكون في أطوارها آنذاك المولى ادريس حين أقدم على هذه الدعوة. ويعني أكثر من ذلك أيضاً الفتوة في الأخلاق والآداب والسلوك والشهامة والنجدة. وبذلك كان يتصف جده علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكذلك عرف، وكذلك وصف حيث قيل "لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار". ونعلم أيضاً عنه ذلك النشاط الحركي لبث الدعوة التي هُض بأمرها أخوه محمد النفس الزكية. ونعرف هذه الاستماتة التي أظهرها في وقعة فخ من رواة تفصيلها ومن البربر الذين سمعوا عنها وهم بأرض الحجاز لأداء فريضة الحج.

ثم نعلم عنه قوله الشعر فيما رواه ابن الأبار^(٢) الذي ذكر له بيتين فقال: من شعره

أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعام وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نتشكى ما يهول من النكب^(٣)

ثم.. ثم ما بين بداية رحلته وظهور دعوته، مجال واسع للشك وللأقوال. يرجع بعضه إلى اختفائه المفاجئ عن الأعين المترتبة، يرجو النجاة بنفسه وبالذعوة التي وقف آل البيت حياتهم عليها.

فكيف خرج المولى ادريس من الحجاز أولاً؟ تواجهنا في ذلك أكثر من رواية واحدة. وفي مصر حيث نجده في مرويات المؤرخين بها من دون بيان واضح عن وصوله إليها. ما هي الطريقة التي تم له ولصاحبه ورفيقه^(٤) راشد التعرف على عامل مصر للخليفة الهادي إذ ذاك وكان اسمه علي بن سليمان الهاشمي^(٥)؟ أو على عامل البريد، واسمه واضح مولى صالح بن أمير المؤمنين المنصور والذي كان يعرف بالمسكين؟ ثم كيف تمت المساعدة على تهريبهما إلى المغرب؟ وهل بتدبير وتخطيط، أم بعفوية وارتجال وسذاجة؟ وما هي المدة التي قضياها في الطريق إلى أفريقية؟ وهل تم ذلك في أميد يسير؟ كما توحي به عبارة ابن أبي

(١) المسالك والممالك للبكري ص ١٢٢.

(٢) الحلة السيرة الجزء ١ ص ٥٣.

(٣) ولا نتشكى ما يهول من النكب. ابن أبي زرع: ولا نتشكى مما يؤول إلى النصب القرطاس ص ٢٦. طبع الأستاذ عبد الوهاب بمنصور. وقد نسب البيتين إلى ادريس بن ادريس. وتبعه في ذلك الناصري في كتابه: الاستقصا. ج ١ ص ١٧٠.

(٤) فضلنا أن نطلق عليه "صاحبه ورفيقه" لأننا وجدنا من يقول: إن راشداً مولى لأخ الإمام ادريس، عيسى بن عبد الله. انظر ابن الأبار: الحلة السيرة الجزء ١ ص ٥٠.

(٥) صبح الأعشى. الفلقشندي الجزء ٣ ص ٤٢٦.

زرع "وسار ادريس مع مولاہ راشد إلى أفريقية يُجَدَان السیر" حتى بلغا إلى القيروان فأقاما بها مدة ثم خرجا إلى المغرب الأقصى^(١) وأتت استراحة بتلمسان.. أياماً، ثم قال: "فلما وصل ادريس طنجة أقام بها أياماً"^(٢) إلى أن استقر مع راشد في مدينة وليلي^(٣). فبذلك يكون قد قضى في طريقه كلها شهوراً معدودات، وعلى أكبر تقدير سنة واحدة. وقد صرح ابن أبي زرع قائلاً: "وكان دخول ادريس رضي الله عنه المغرب ونزوله على اسحق عام مئة وسبعين"^(٤) وهذا هو قول ابن عذارى في البيان المغرب^(٥) وهو لا يعين شهراً من شهور هذه السنة. فلا يمكن تحديد تلك المدة بالتدقيق.

لكن بعضاً من المؤرخين يصرح بأن المدة التي استغرقها هذا السفر بين انطلاقه من أرض الحجاز ووصوله إلى مقر الدعوة بوليلي كانت ثلاث سنوات!^(٦) وهذا الخلاف يخفي أموراً عظيمة الأهمية. بينما نجد في المصادر التاريخية الأقدم، أكثر من رواية واحدة عن رحلة المولى ادريس إلى أرض المغرب. تختلف في بعض التفاصيل عن بعضها البعض. كما تضيف بعض الاشارات إلى الروايات الأخرى. فينقل البكري في كتابه (المسالك والممالك) منها اثنين، الأولى عن أبي الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفي^(٧). وهي مفصلة وأغلب تفاصيلها معروفة تتداولها المصادر بقليل من الاختلاف لكنها غنية بالعبارات والملاحظات الهامة، مثل قوله: إن المولى ادريس بعد وقعة فح "استتر مدة وألح السلطان في طلبه فخرج به راشد.. في جملة الحاج منحاشاً عن الناس" وأن راشداً غير زي المولى ادريس" وألبسه مدرعة وعمامة غليظة وصيره كالغلام يخدمه وإن أمره ونهاه أسرع في ذلك" أو أهما دخلا مصر ليلاً. أو الطريقة التي تعرفا بها على صاحب دار مشيدة من غير أن يذكر اسماً له إلى أن "أدخلهما بيته وسترهما حتى تمينا للخروج في رفقة إلى أفريقية.."^(٨)

والثانية عن أحمد بن الحارث بن عبيدة اليماني. قال عنها البكري أنها "نحو رواية النوفي" وذكر ملخصاً لها. وهي على قصرها تفيد في كشف بعض الغموض. فهناك

- (١) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٨.
- (٢) نفس المصدر ص ١٩. ويلاحظ أن الكلام هنا عن المولى ادريس وحده، على خلاف ما سبق. فهل يعني ذلك أن المولى ادريس قد دخل طنجة وحده؟ وأن راشداً كان في مهمة، يمهّد للدعوة بعيداً عن طنجة؟
- (٣) الاستقصا. الناصري الجزء الأول ص ١٥٤.
- (٤) الأنيس المطرب. ابن أبي زرع ص ١٩.
- (٥) البيان المغرب ابن عذارى الجزء الأول ص ٢١٠.
- (٦) المسالك والممالك البكري ص ١١٨.
- (٧) رواية النوفي هذه، يرويها أيضاً الأصفهاني في كتابه: مقاتل الطالبين ص ٤٨٨ - ٤٨٩.
- (٨) المسالك والممالك البكري ص ١١٨ طبع.

يذكر أن واضح مولى صالح بن المنصور كان "يتشيع" وأنه "حمله على البريد فوق بآرض طنجة" (١).

أما ابن خلدون فيروي رواية تضيف إلى ما سبق أن واضح هو الذي "علم شأن ادريس وأتاه إلى الموضوع الذي كان به مستخفياً ولم ير شيئاً أخلص من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل" (٢).

وذكر ابن الأبار رواية عن أبي بكر الرازي، وفيها "أن ادريس بن عبد الله دخل المغرب سنة ١٧٢ في شهر رمضان هارباً من نفسه من أبي جعفر فتزل موضعاً يقال له وليلي بوادي الزيتون" ثم نبه صاحب الرواية على غلط القائل بدخول ادريس المغرب في خلافة أبي جعفر المنصور (٣).

إلا أن مختلف المصادر تكاد تجمع على أن هذه الرحلة انطلقت من مكة بالحجاز إلى مصر، ومنها إلى برقة ثم تلمسان وأخيراً أرض المغرب. على التباين في كيفية حصول ذلك والاختلاف فيه، والسكوت في أكثر الأحيان عن التفاصيل المفيدة. وربما يُعزى ذلك إلى تلك الظروف الحرجة من حياة المولى ادريس التي كانت تقتضي احتجابه عن الأعين وتستره، وإلى ما يفرضه نجاح الدعوة من السرية التامة.. فغابت بذلك كثير من الأخبار عن المؤرخين.

وتتجلى آثار مظاهر الاختلاف عندما تصل دعوة المولى ادريس إلى مرحلة حاسمة بوصوله إلى المغرب؛ إذ لم يشير بدقة في المصادر القديمة إلى اسم مدينة "طنجة" مجرداً، تلك التي قيل أنه وصلها. فلقد قيل "بأرض طنجة" (٤) أو "فاس طنجة" (٥) أو "بجومة طنجة" (٦). فلا سبيل إلى الجزم ببقائه في طنجة سنتين، خصوصاً إذا علمنا أن عاصمة طنجة كانت هي وليلي، كما يذكر ابن الفقيه (٧)، وآخر مدائنها (٨)، كما يقول قدامة بن جعفر. ولا حاجة إلى التلميح بكون طنجة كانت مركزاً ثقافياً منذ العهد البيزنطي صالحاً لبث

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢١.

(٢) تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ص ٢٤ طبع بيروت.

(٣) الحلة السيرة ابن الأبار ص ٥٠.

(٤) تاريخ الطبري "تاريخ الرسل والملوك" الجزء الثالث المجلد العاشر ص ٥٦١ طبع: بريل، والمسالك والممالك للبكري ص ١٢١.

(٥) يقول أبو الفرج الأصفهاني: "حتى دخل بلاد المغرب في موضع منه يقال لها "فاس وطنجة" فأقام بها واستجابت له البربر" مقاتل الطالبين ص ٤٨٨.

(٦) جني زهرة الآس. الجرناني ص ١١ - ١٢.

(٧) مختصر البلدان ص ٨٤ طبع بريل ١٨٨٥.

(٨) كتاب الخراج ص ٢٦٦.

الأفكار والمبادئ المذهبية. أو الاعتماد على أسباب سياسية ثورية لتبرير ذلك، كالتهيء للدعوة والاتصال بالقبائل وتكوين الخلايا^(١).

ولتوضيح الأمر نقول: إن هناك من المصادر من لم يذكر اسماً لطنجة أصلاً، كابن خلدون مثلاً. لكن الأهم من ذلك هو إشارة مفيدة جداً وردت عند البكري، يقول: "وكان نزول ادريس عند دخوله المغرب بوليلي. ووليلي هي طنجة البربرية"^(٢). بهذا اختلط على المؤرخين أمر بقاء المولى ادريس في طنجة بين من قال "أياماً" وزادوا قائلين "فلما لم يجد بها مراده تحول عنها إلى ويلة" وبين من قال "سنتين" وأكثر من التعليل لذلك. أما آخرون فجعلوا "السنتين" في ويلي نفسها ونزوله على اسحاق بن عبد الحميد الأوربي بعدها سنة ١٧٢^(٣).

ووليلي التي اتخذها المولى ادريس مقر دولته هي بغربي مدينة فاس على مسافة يوم منها. واستقر المولى ادريس بوليلي في المرحلة الحاسمة من دعوته غرة ربيع الأول سنة ١٧٢^(٤)، فقيل أنه لم يعلن عن دعوته إلى بعد ستة أشهر في يوم الجمعة رابع رمضان ١٧٢^(٥). وهنا نتساءل عن مغزى هذا الصمت طيلة الشهور الستة. فإذا كان المولى ادريس قد قضى مدة في مدينة طنجة، يكتب القبائل ويدعوها لدعوته وانتقل بعدها إلى ويلي فما الذي أخره عن أخذ البيعة له؟ ثم ما حاجته لهذه المكاتب مع صاحب أوربة، وقد قيل إن صاحبه راشد بربري من أوربة نفسها^(٦). أما القبائل الأخرى فإنما ناصرته بعد اعلان البيعة واستكمال قوته.

أعلنت البيعة وظهرت الدعوة. فبادر المولى ادريس فوراً لغزو أولئك البربر الذين كانوا على غير دين الاسلام. أو الذين تأخروا عن الانضمام إليها. فغزا تامسنا ثم زحف إلى بلاد تادلا بجيش من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم. ثم رجع إلى ويلي وأواخر

(١) الرأي للمرحوم العلامة علال الفاسي. مجلة الوثائق العدد ١ ص ٥٠ - ٥١.

(٢) المسالك والممالك ص ١١٨. قال أبو منصور الجواليقي في كتابه: المغرب في الكلام الأعجمي: (ص ٢٢٣) "طنجة اسم البلد المعروف. وليس بعربي" وذكر الأستاذ محمد شفيق عن كلمة ويلي البربرية أن: "الدفلي. (اليلي) عامة الاستعمال يتحول إلى (اوليلي) بفعل الاضافة. ثم أضاف: "مدينة (أوليلي) في الآثار القديمة حرف الرومان اسمها (فولويليس)". في أن أسماء الأماكن في المغرب جلتها مازيغية. مجلة البحث العلمي ص ٥٣٦. العدد ٢٧ السنة ١٤. سنة ١٩٧٧.

(٣) البيان المغرب الجزء الأول ص ٢١٠ تحقيق: كولات وبروفانسال.

(٤) ابن الأبار: "في شهر رمضان" الحلة السيرة الجزء ١ الصفحة ٥٠ وهو بدون شك خلط بين تاريخ دخوله وتاريخ اعلان دعوته. وأبعد التواريخ التي ذكرت لتزوله بوليلي هي سنة ١٧٦ هـ وقد ذكرها ابن خلدون. (تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع الصفحة ١٣، طبع بيروت)

(٥) الاستقصا. الناصر. الجزء الأول الصفحة ١٥٥.

(٦) المولى ادريس: للعلامة عبد الله كنون ص ٦.

ذي الحجة سنة ١٧٢ أي بعد أربعة أشهر من البيعة. فأقام بها شهر محرم مفتوح ١٧٣ حتى استراح الناس. ثم خرج برسم غزو من كان بقي من قبائل البربر بالمغرب على دين الجوسية واليهودية والنصرانية. وعاد إلى مدينة ويلي. فدخلها في النصف من جمادى الآخرة سنة ١٧٣. وبقي إلى منتصف رجب فغزا فندولاة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز.

ثم خرج في نصف رجب ١٧٣ برسم مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبنى يفرن وبنى مسجدها في صفر ١٧٤ ودخلها صلحاً. وسنين سبب ذلك فيما بعد وسبب خوف الرشيد من هذا الفتح الجديد. وخرج في جمادى الآخرة سنة ١٧٤^(١) إلى تازا. قال البكري: "وهو موضع من أعمال بني العافية."^(٢)

الذي يتجلى هنا هو أن معالم تحركات المولى ادريس العلنية. وخطوط شخصيته بدأت تتضح. لهذا ظهر الاتفاق في المصادر على تحركاته. وإن اختلفت قليلاً في الأهداف من بعضها. لكن سرعان ما نرى الروايات والآراء تتباين من جديد فيما بعد الموت المفاجئ للمولى ادريس. فعند ابن أبي زرع أنه اغتيل في ربيع الآخر سنة ١٧٧^(٣). وزاد الناصري "في مهل ربيع الآخر"^(٤). وكان مهل هذا الشهر هو يوم الثلاثاء. وأن مدته التي أجابته البربر هي ثلاثة أعوام وستة أشهر^(٥). فيما يذكر البكري وابن خلدون وابن الخطيب^(٦) أن المولى ادريس توفي آخر شهر ربيع الأول ١٧٥.

يظهر التناقض جلياً في فساد الرأي الأول عند المقارنة بالتاريخ الذي حدده ابن أبي زرع وبعده الناصري لدخول المولى ادريس لويلي سنة ١٧٠ أو ١٧٢. فكيف يتم تطبيق هذا مع "ثلاثة أعوام وستة أشهر" في حين نجد تناقضاً عند البكري وابن الخطيب وابن الأبار عندما يذكرون أن مولد ادريس الثاني كان في ربيع الآخر سنة ١٧٥^(٧) حيث يكون

(١) يذكر ابن الأبار في رواية أبي بكر الرازي، أن المولى ادريس لم تطل حياته وهلك سنة ١٧٤ هـ. الحلة السيرة الجزء الأول ص ٥٠.

(٢) المسالك والممالك ص ١١٨ وهذه الإشارة ذات مغزى خاص.

(٣) الأئیس المطرب بروض القرطاس ص ٢٣.

(٤) الاستقصا الجزء الأول ص ١٥٥. وقال بذلك العلامة عبد الله ككون في كتابه: المولى ادريس ص ١٠.

(٥) يقول الجزنائي: "وذلك في منسلخ شهر ربيع الآخر خمس وسبعين مئة. فكانت أيامه؛ سنتين وثمانية أشهر على ما قاله البكري في مسالكة، في زهرة الآس ص ١٥. تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور لكن الذي قاله البكري في كتابه المسالك والممالك ص ١٢٢ هو ما يلي: "قال النووي، وكانت مدة ادريس التي أجابته فيها البربر إلى أن مات بويلي سنة ١٧٥ ثلاثة أعوام وستة أشهر".

(٦) المسالك والممالك ص ١١٢ وتاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٣ وأعمال الأعلام الجزء الثاني ص ١٩٤.

(٧) خصوصاً عند الجزنائي الذي يحدد ذلك بـ: رجب ١٧٥. جني زهرة الآس ص ١٥. وأكثر تحديداً منه ابن الخطيب الذي يعينه بـ: ربيع الآخر ١٧٥. أعمال الأعلام الجزء الثاني ص ١٩٦.

بين وفاة الأب ومولد الابن شهراً واحداً على الأكثر. وقد قيل في المصادر المغربية: إن الجارية كترت كانت حاملاً في الشهر السابع. إلا إن اعتبرنا سكوت البكري عن ذلك وتوضيح الأمر من ابن الخطيب بقوله: "ترك جارية بربرية اسمها كترت مقرباً يحمل منه تناهز الوضع" وحينئذ يكون خلاف بين الرواية الأولى والثانية في السنوات وهو اختلاف كبير.

وجد الاختلاف أيضاً في الطريقة التي اغتيل بها المولى ادريس. فوصف ذلك بطرق متعددة . تلقاها ابن خلدون باحتياط وقال: "وكان فيما زعموا حتفه"^(١). فقيل بواسطة قارورة عطر مسمومة^(٢). وقيل أنه بسنن مسموم^(٣) إذ كان يشتكي من وجع الأسنان واللثة^(٤). وقيل في حوت الشابل^(٥). وقيل بعنب في غير ابانه. وقيل في دلاعة قطعها قاتله يسكين قد سم أحد جانبيه فلما قطعها ناوله الذي باشر السم وأكل هو الآخر. وهو النحو الذي صححه محمد ابن ابراهيم بن محمد بن القاسم فيما ينقل البكري^(٦). ورواية أهل المغرب كما ذكر اليعقوبي: إنه سمه في سواك^(٧). قال ابن الأبار. وولده وأهل بيته يقولون أنه سم في بطيخة.."^(٨) والذي تولى تنفيذ هذه الجريمة هو سليمان^(٩). هذا هو المؤكد من اسمه، وتبقى احتمالات في اسمه كاملاً يرجع أغلبها إلى عدم الدقة في كتابته بالنسخ الخطية الأصلية للمصادر التي أوردته. أو الخطأ في قراءته عند تحقيقها. فهل هو سليمان بن جدير؟ وأنفرد بذلك الخطيب^(١٠). أو سليمان بن حريز^(١١). أو سليمان بن جرير الزيدي^(١٢) أو سليمان بن جرير الحزري^(١٣). أو سليمان بن جرير الرقي. كما عند

(١) تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ص ٢٥.

(٢) البكري: قارورة فيها غالية مسمومة. المسالك والممالك ص ١٢١ وابن الخطيب: أعمال الأعلام الجزء الثاني ص

١٨٨. وأبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ٤٨٩.

(٣) ابن جرير الطبري. الجزء الثالث، المجلد العاشر ص ٥٦١. الأصفهاني ص ٤٩٠.

(٤) الناصري. الاستقصا الجزء الأول ص ١٥٩.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني: "سمكة مشوية" مقاتل الطالبين ص ٤٩٠. ويفصل ذلك ابن الأبار فيقول: "ويقال أن سليمان

هذا، وكان يقول بإمامة زيد بن علي بن الحسين، ناظر ادريس يوماً في شئ فخالفه، ثم دخل الحمام، فلما خرج وبعث إليه سليمان بسمكة مشوية، أنكر نفسه عند أكلها منها، فشكا بطنه وقال: ادركوا سليمان!" الحلة السيرة الجزء الثالث

ص ٥٢ - ٥٣.

(٦) المسالك والممالك ص ١٢١.

(٧) تاريخ اليعقوبي الجزء الثاني ص ٤٠٥.

(٨) الحلة السيرة الجزء الثاني ص ٥٢.

(٩) ابن الأبار: "واختلف فيمن سم ادريس" الحلة السيرة الجزء الثاني ص ٥٢.

(١٠) أعمال الأعلام. الجزء الثاني ص ١٩٣.

(١١) تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ص ٢٥.

(١٢) مقالات الإسلاميين. الجزء الأول ص ١٣٩.

(١٣) المسالك والممالك ص ١٢٠.

أبي سعيد بن نشوان الحميري. وكما عند ابن الأبار الذي يشير قوله إلى أنه شخص ثانٍ غير الشماخ^(١). أو سليمان بن جرير البجلي^(٢)، ويعرف بالشماخ^(٣) أو اليمامي^(٤)، أو المشماسي^(٥). وهو مولى للمهدي العباسي والد الرشيد. أشار يحيى بن خالد اليرمكي على هارون الرشيد بإرساله للقضاء على المولى ادريس باظهار المكر والخداع. واستعمال المكيدة والحيلة. وهو رجل من ربيعة جمع الظرافة والذلافة إلى الشجاعة والتدبير وقوة المنطق الجدلي والحجة الكلامية، حتى وصف بأنه "أحد شياطين الأُنس" وكان سليمان ممن يرى رأي الزيدية. بل كانت له إمامة فيهم^(٦) فترع إلى المولى ادريس مظهرًا للتبرؤ من

(١) الحور العين ص ١٤٨ الحلة السرياء ص ٥٢.

(٢) جني زهر الأس ص ١٤.

(٣) الاستقصا الجزء الأول ص ١٥٨.

(٤) تاريخ الطبري الجزء الثالث المجلد العاشر ص ٥٦١.

(٥) قرئت هذه الكلمة أيضا "السماسي". انظر التعليق رقم ١ الصفحة ٥٢. في الحلة السرياء لابن الأبار.

(٦) عرفت احدى فرق الزيدية بـ: "الجريرية" كما سميت بـ "السليمانية". وكلاهما نسبة إلى سليمان ابن جرير. قول عبد القادر البغدادي م ٣١٦ هـ، في بيان مقالات فرق الرفض "ذكر السليمانية أو الجريرية منهم. هؤلاء أتباع سليمان بن جرير الزيدية الذي قال إن الامامة شورى، إنما تتعقد بعقد رجلين من خيار الأمة. وأجاز امامة المفضول، وأثبت امامة أبي بكر وعمر. وزعم أن الأمة تركت الأصلح في البيعة لهما لأن عليا كان أولى بالامامة بينهما، إلا أن الخطأ في بيعتهما لم يوجب كفرا ولا فسقا. وكفر سليمان بن جرير بالأحداث التي نقمها الناقدون منه. وأهل السنة يكفرون سليمان بن جرير من أجل أنه كفر عثمان رضي الله عنه". الفرق بن الفرق ص ٢٣ - ٢٤. طبع دار الامامة الجديدة - بيروت. وقال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: "الجزء الأول ص ١٦٠" السليمانية، أصحاب ابن جرير وكان يقول: أن الامامة شورى فيما بين الخلق، ويصح أن تتعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين، وإنما يصح في المفضول مع وجود الأفضل، وأثبت امامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حقا باختيار الأمة. حقا اجتهاديا وبما كان يقول: إن الأمة أخطأت في البيعة لهما مع وجود علي رضي الله عنه، خطأ لا يبلغ درجة الفسق. وذلك الخطأ الاجتهادي. غير أنه طعن في عثمان رضي الله عنه للأحداث التي أحدثها، وأكفره بذلك وأكذب عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم باقداهم على قتال علي رضي الله عنه. ثم طعن في الرافضة.. وتابعه على القول بجواز امامة المفضول مع قيام الأفضل قوم من المعتزلة. منهم: جعفر بن مبشر، وجعفر بن حرب، وكثير النوى. وذهب جماعة من أهل السنة إلى ذلك حتى جوزوا أن يكون الامام غير مجتهد، ولا تخير بمواقع الاجتهاد. ولكن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد. فيراجع في الكلام، ويستفتي في الحلال والحرام. ويجب أن يكون في الجملة ذا رأي متين وبصر في الحوادث نافذ". وذكر الامام أبو الحسن الأشعري في كتابه "مقالات الاسلاميين" (الجزء الأول ص ١٣٩) تحت عنوان: واختلفت الزيدية في الباري عز وجل: هل يوصف بالقدرة على أن يظلم ويكذب؟ وهم فرقتان". وأورد رأي سليمان بن جرير الزيدي فقال: "فالفرقة الأولى منهم، أصحاب سليمان بن جرير الزيدي يزعمون أن الباري لا يوصف بالقدرة على أن يظلم ويجوز. ولا يقال لا يقدر، لأنه يستحيل أن يظلم ويكذب. وأحالوا قول القائل "يقدر الله أن يظلم ويكذب. وأحالوا سؤاله. وكان سليمان يجيب على قول القائل "يقدر الله تعالى على ما علم أن لا يفعله" إن هذا الكلام له وجهات: إن كان المسأل يعني ما علمه أنه لا يفعله مما جاء الخبر لا يفعله. فلا يجوز القول "يقدر عليه" ولا "يقدر عليه" لأن القول بذلك محال. وما لم يأتي به خبر، فإن مما في العقول دفعه: فإن الله عز وجل لا يوصف به. وإن من وصفه به محيل فالجواب في ذلك مثل الجواب فيما جاء الخبر بأنه لا يكون. وأما ما لم يأتي به خبر، وليس في العقول ما يدفعه فإن القول "إنه يقدر على ذلك". جائز وإنما جاز القول في ذلك لجهلنا بالمعجب فيه. ولأنه ليس في عقولنا ما يدفعه وإنما قد رأينا مثله مخلوقا". ونقل أبو سعيد بن نشوان الحميري (م ٥٧٣ هـ، في كتابه "الحور العين" (ص ١٤٨). رأيا لسليمان بن جرير. قال: "وقال سليمان بن جرير الرقي في الزيدية، بنفي التشبيه إلا أنه زعم أن الله عالم شيء، لا هو هو، ولا هو غيره، وإنه وعلمه قائم معه. قال: ولا يجوز أن يكون عالم بغير علم، ولا يجوز أن يكون الشيء علم نفسه، ولا يجوز أن يكون علم الله بغيره. إلا أنه لو كان غيره، لكان علمه بغيره، ووقع التغاير بينهما". انظر عن آراء سليمان بن جرير أيضا: فرق الشيعة للنوبختي ص ٦١ يعيد ويراجع حول آراء سليمان بن جرير الزيدي واختلفه أو التقائه مع الفرق الأخرى كتاب "نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام" للدكتور النشار. الجزء الثاني ص ١٩٦ - ١٩٨ و ٢٠١ - ٢٠٣.

الدعوة العباسية^(١). ورافقه في رحلته هذه رجل موثوق بإخلاصه وشجاعته، ليساعده على الهروب^(٢) مزوداً بالمال الجزيل. فانتحل الطب لانبجاس مكيدته ولما وصل إلى المولى ادريس، ادعى أنه من بعض موالي أبيه عبد الله وأنه قصده حباً. "وصاغية إليه" وميلاً لأهل بيته. فسُر به المولى ادريس وأنس بقربه وسكن إليه و"لطف منه محله". فكان لا يأنس لغيره..". وهكذا مهد سليمان لمهمته.. وعند هذا الحد اتمها بقتل المولى ادريس.

كثير من الأشياء لا تستقيم إذن في هذه الروايات والأخبار المتقدمة مما يقتضي إعادة النظر في الأحكام التي بُنيت عليها ويقتضي التريث في الأخذ بمظاهر الأحداث كما تُنقل والتثبت من ملاحظات المصادر التاريخية.

كيف يمكن إذن العمل من أجل كتابة تاريخ للدراسة عموماً، أقرب إلى واقعه، ونحن نفقد مصادره الأصلية؟ أم كيف نطمئن إلى هذه المصادر التي بين أيدينا، وهي على ما هي عليه من الاضطراب؟ لا سبيل الآن إلا أن نُعاود القراءة، وأن نقف عند الكلمات والعبارات وقوف الناظر المتبصر ونتبع الأحداث بمقارنتها بما كان يجري في الشرق والغرب.

لم يأت المولى ادريس إلى المغرب بالصدفة. فقد كانت هذه الأسرة الكريمة تختار المناسب من المكان والزمان لظهور دعوتها، قيل لأخيه يحيى في خروجه بالدليم: كيف تخيرت الدخول إلى الديلم من بين النواحي؟ قال: إن للديلم معنا خرجة. فطمعتُ أن تكون معي^(٣).

ورأى راشد في التوجه بادريس إلى المغرب أنه بلد ناء لعله يأمن فيه ويعجز من يطلبه^(٤). ولعل ذلك أيضاً لما قيل من أن أوربة هي قبيلة راشد. لكن عنصراً آخر يترأى هنا، هو اتصال قد يكون وقع مع بربر هذه البلاد في الحجاز أولئك الذين ذُكر أنهم شاهدوه يقاتل في فخ وقميصه ملطخ بالدماء. هذا إلى ما عرف به البربر من نجدة الضعفاء وايواء الغريب ونصرة المظلوم. ولا يعزب عن أذهاننا اعتماد قيام هذه الدعوة في الشرق والغرب على عناصر غير عربية. ولهذا كانت بلاد المغرب أصلح البلاد لقيام هذه الدعوة

(١) يفيد كلام البكري أن المولى ادريس كان عالماً بسليمان وبرياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: إني جئتك وحملت نفسي على ما حملت عليه لذهبي الذي تعرفني به وإن السلطان طلبني، هذا محبتي في الخروج معكم أهل البيت، فجئتك لآمن في ناحيتك بنفسي (المسالك والممالك ص ٢٠) لكن كلام ابن الخطيب هنا (أعمال الاعلام ج ٢ ص ١٩٣) وابن أبي زرع (القرطاس ص ٢٠) يفيدان، أن المولى ادريس لم يكن يعرف سليمان قبل ذلك. قال ابن أبي زرع: "فقدم على ادريس بمدينة ويلي، فسلم عليه، فسأله عن اسمه ونسبه ومن أي البلاد قدم وما سبب قدومه إلى المغرب.

(٢) عند ابن الأبار: ساعده على الهروب رسل أتوا في ذلك. الحلة السيرة ج ١ ص ٥٢.

(٣) مقاتل الطالبين ص ٤٧٠.

(٤) المسالك والممالك ص ١١٩.

وكان الأمر كما حدث في قيام الدولة العباسية بخراسان خصوصاً وقد فشلت دعوات قبلها في الشرق، وبدا الأمل في نجاح بعضها في المغرب. فقد أجاب خلق كبير من قبائل البربر عيسى بن عبد الله مبعوث محمد النفس الزكية إلى أفريقية^(١) فكان اتجاه المولى ادريس إلى المغرب عن قصد هدته إليه تجارب من سبقوه من اخوانه، وجاء نتيجة محاولات سابقة ومحاولات ممهدة، كانت السربة تغلب عليها وتحف كل تحركاته وكانت التقية أساسها فإذا كان الغموض يخفي هذه المرحلة فلعله يعود إلى هذا السبب.

في إحدى روايات البكري عما انكشفت عنه وقعة فخ قال: "وقال غير هؤلاء إن داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب هو الذي أفلت من وقعة فخ وهرب إلى المغرب وذرية داود هذا بفاس وبنو ادريس يناكحونهم وانصرف داود إلى المشرق"^(٢). فإذا صحت هذه الرواية يكون هذا أول قادم إلى المغرب من آل البيت. والظاهر أنه لم يوفق، فرجع^(٣).

وقبل المولى ادريس أو معه في نفس الظروف انتقل أخوه سليمان الذي احتل تلمسان واستقر بها. واضطرب القول عند ابن خلدون عن مجيء سليمان إلى مغرب، بين كون ذلك بعد نزوح المولى ادريس إليه وبيعة أوربة ومغيلة وصيدنه له، ووفود القبائل الأخرى عليه واستتباب أمره وتمكن سلطانه قوة شوكته فقال "ولحق به من إخوته سليمان ونزل بأرض زناتة بتلمسان ونواحيها ونذكر خبره فيما بعد"^(٤) وبين كونه حدث بعد أن هلك المولى ادريس. وأن سليمان طلب الأمر في البلاد التي كان بها فلم يفلح فذهب إلى تلمسان^(٥).

أما ابن زرع فيروي الأحداث متسلسلة وهي أن سليمان بعثه أخوه محمد النفس الزكية إلى بلاد مصر داعياً له، ثم سار بعد مقتل أخيه إلى بلاد النوبة، ثم إلى بلاد السودان داعياً لنفسه، ثم خرج إلى الزاب، ثم إلى تلمسان، فترها واستوطنها وذلك في أيام أخيه ادريس. وتزوج بها فولد له عشرة أولاد وقيل أحد عشر ودخل ولده إلى بلاد دكالة والسوس والأقصى^(٦).

(١) القرطاس ص ١٥.

(٢) المسالك والممالك ص ١٢٢.

(٣) البيان المغرب الجزء الأول ص ٢١٠.

(٤) تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ص ٢٤.

(٥) نفس المصدر الجزء الرابع ص ٣٦.

(٦) القرطاس ص ١٥ - ١٦.

وقيل إن رحلة سليمان هذه حدثت قبل هذا إذ أنه قتل فيمن قتل بفخ. ولعل هذا هو الأصوب حيث أشار أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين^(١) إلى وجوده مع أخوية ادريس ويحيى، كما أكد أنه قتل هناك^(٢) والأمر كذلك عند الطبري^(٣)، والمسعودي^(٤). ويزيح الستار عن هذا الغموض أحد أعقاب سليمان ابن عبد الله، الباحث العلامة أبو العباس سيدي أحمد بن المواز في كتابه: حجة المنذرين على تنطع المنكرين فيقول: إن دخول سليمان المغرب كان فرارا من أبي جعفر المنصور وأنه ترك ولده محمدا خليفة عنه بعين الحوت ورجع إلى الحجاز لأخذ الثأر في أيام موسى الهادي بن المنصور عند محاربتة مع الحسين بن علي بن الحسن المثلث. فاستشهد مع من استشهد من أبناء عمه في وقعة فخ بذي طوى قرب مكة المشرفة سنة تسع وستين ومئة ١٦٩ ثم أضاف: "ومن قال إن مولانا ادريس أول قادم للمغرب فيعني المغرب الداخلي الأوسط، فلا ينافي تقدم دخول عمه (كذا) إلى المغرب الأول الأدني كما هو معلوم"^(٥). وكما وجه محمد النفس الزكية أخاه عيسى إلى أفريقية، وأخاه سليمان الذي واصل دعوته إلى أن بلغ تلمسان، فقد وجه أخاه ادريس إلى بلاد المغرب^(٦) ولسنا نعلم عن هذه الرحلة إلا اليسير. ولكن ينبغي أن نستنتج منها أنها الرحلة التي مهد بها المولى ادريس للدعوة التي لم تأت أكلها إلا فيما بعد، حيث لاقت المساعدة والترحيب، وشجعت على العودة إلى المغرب. ثم يعود المولى ادريس يقصد بلاد المغرب التي تدين له بالدعوى فيها مما قام هو به، وبما أنجزه أخوه سليمان، وبما انتقل إليه من دعاة ومبلغين وتسرب من أمور الدعوة، مما نجعل عنه كل شيء يعود هذه المرة داعيا لأخيه يحيى الذي خرج بالدليم^(٧).

(١) مقاتل الطالبين ص ٤٥٦.

(٢) نفس المصدر ص ٤٣٣.

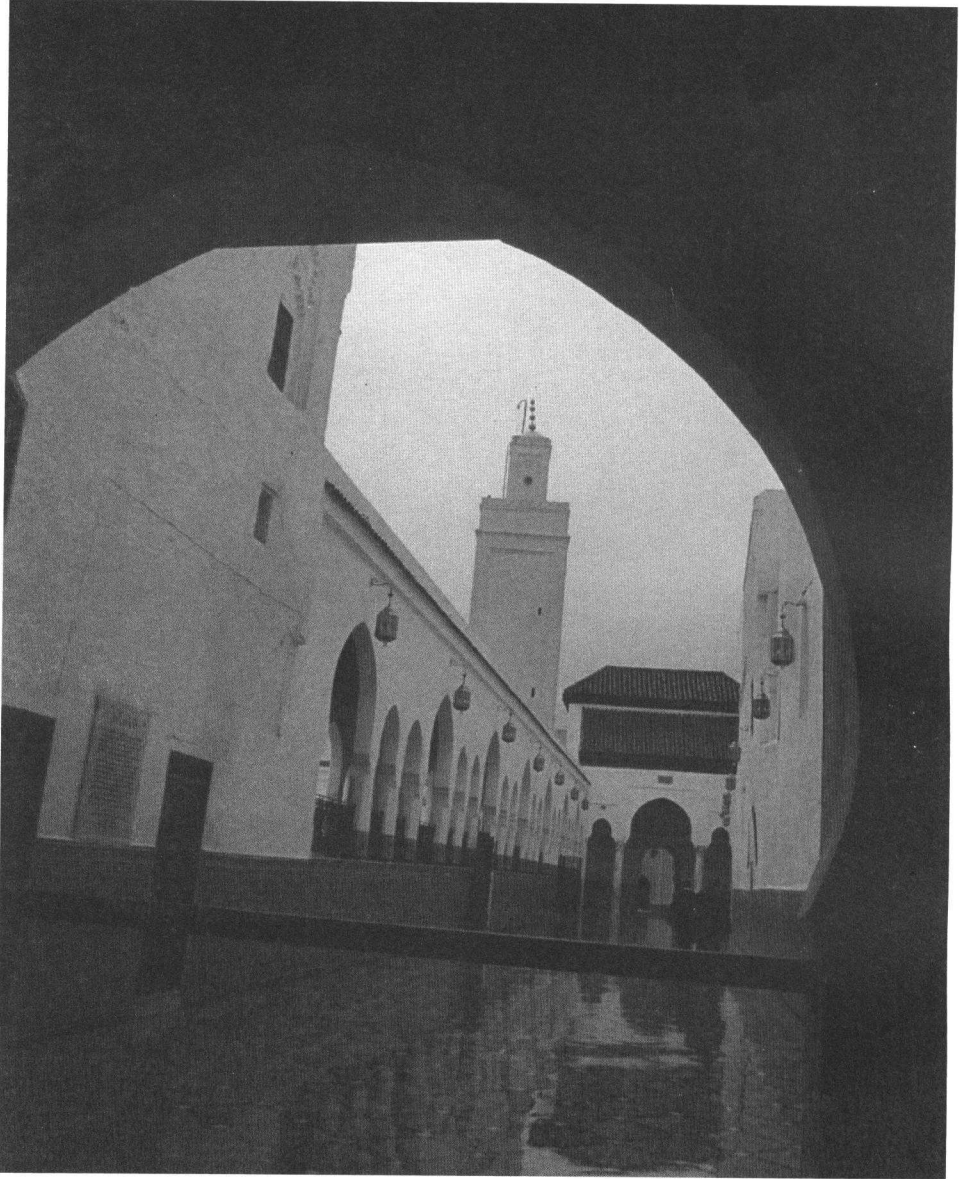
(٣) تاريخ الرسل والملوك الجزء الثالث. المجلد العاشر ص ٢٨.

(٤) مروج الذهب الجزء الثاني ص ١٨٣ وذكر سيدي عبد الله بن محمد بن الشارف بن سيدي علي حشلاف في كتابه: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول" (ص ١١٦ - ١١٧). "قيل أول من دخل المغرب ونزل تلمسان هو مولانا سليمان وصحبه الحلبي وأبو الربيع العلمي، اعتمادا على ما للسنوفلي وابن خلدون وابن زرع وغيرهم. ويقال الداخل له والنازل بتلمسان قتل بفخ كما عند مصعب وابن حزم وغيرهما. والبائع له بتلمسان هو ابنه محمد دفين وهران. وعقبه بعين الحوت وتراث ووادي شلف وتونس واشكول وتاهرت وترارة ووادي ملوية والشقراني من مستغاثم ومحصر والسودان وتادلة وسجلماسة وفشتالة بقبيلة الاحماس وفاس الرمان وغير ذلك" ويمكن أن يستدل على تأكيد القول بأن الداخل إلى تلمسان الذي مكن للأمر بها إنما هو محمد بن سليمان لا سليمان نفسه، بإشارة وردت عند يعقوبي في كتاب البلدان (ص ٣٥٦ - ٣٥٧) في نسبة المملكة القائمة هناك إلى ابنه لا إليه. قال معنونا لذلك: "مملكة بني محمد بن سليمان" وعدد مدن مملكتهم قائلا: "ثم مملكة ابن مسالة الهواري إلى مملكة ابن محمد سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن أيضا سوى المملكة لتي ذكرها وهي مدينة مدكرة. وآخر مملكتهم مدينة.

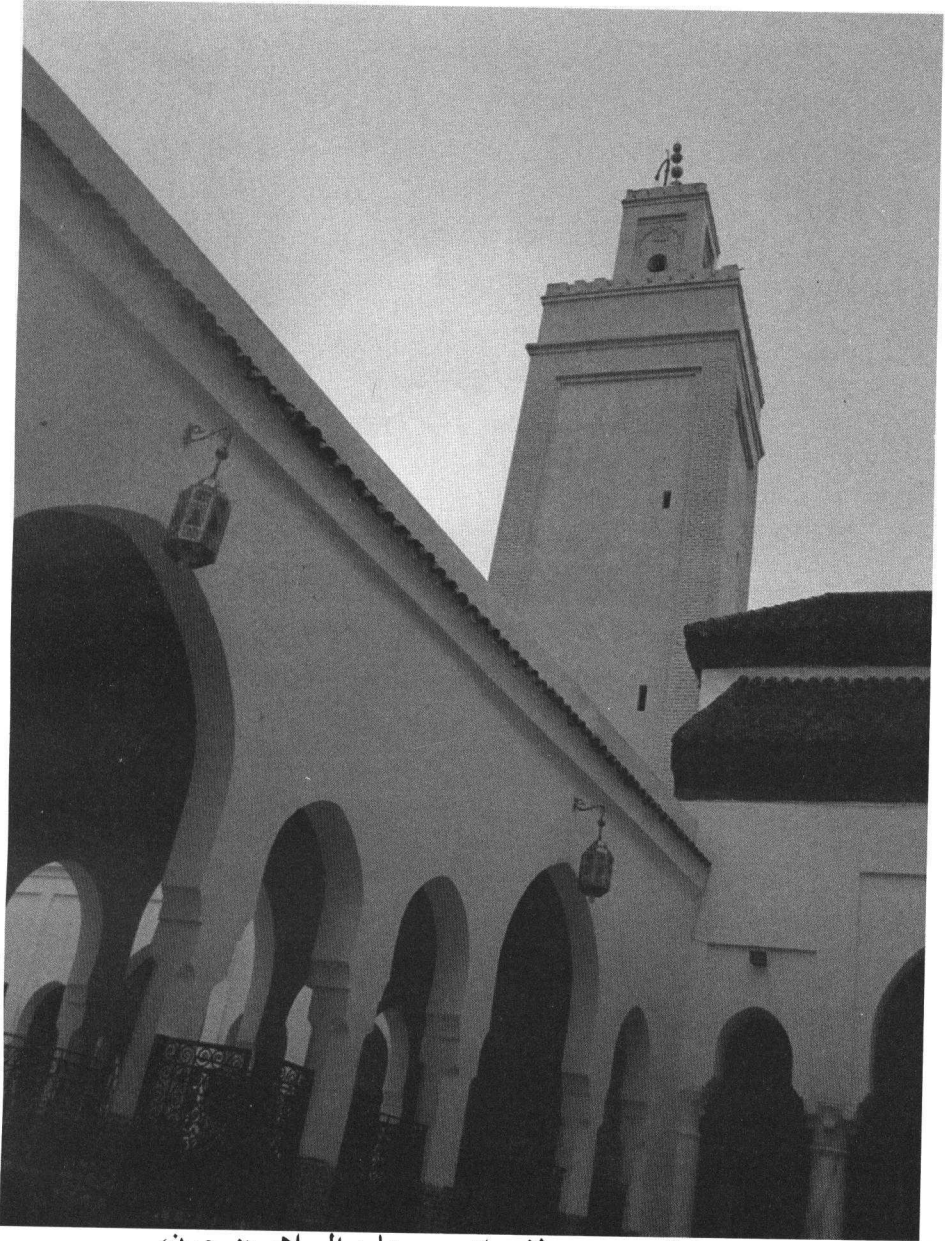
(٥) حجة المنذرين على تنطع المنكرين. أبو العباس سيدي أحمد بن المواز ص ١٢٠ - ١٢١ طبع فاس (حجرية).

(٦) مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري. الجزء الأول ص ١٤٥.

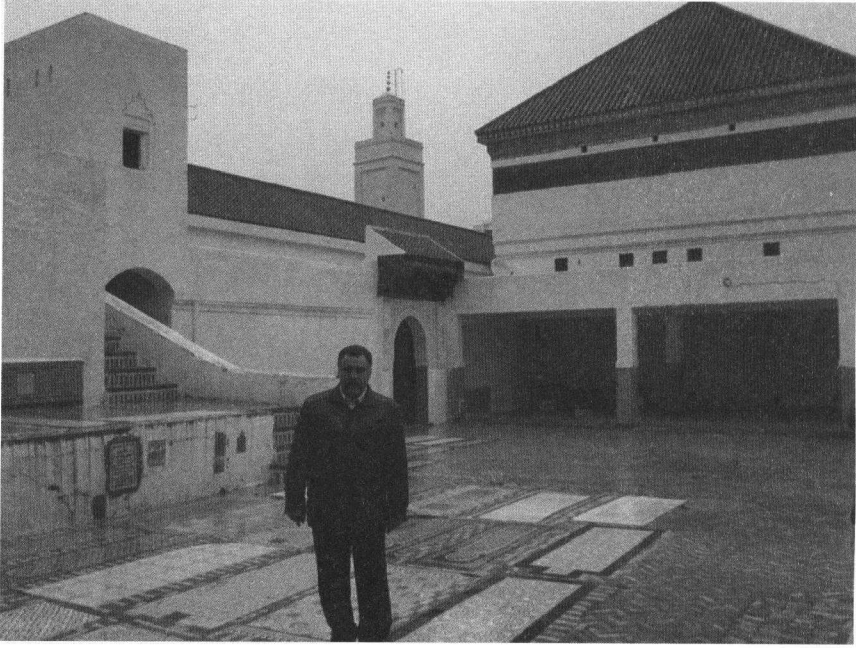
(٧) اللآلئ المضئفة وهو شرح البسامة والمرجع الشافعي للامام عبد الله بن حمزة ج ١ عن المولى ادريس الأكبر للمرحوم العلامة علال الفاسي. ومجلة الوثائق العدد ص ٣٧.



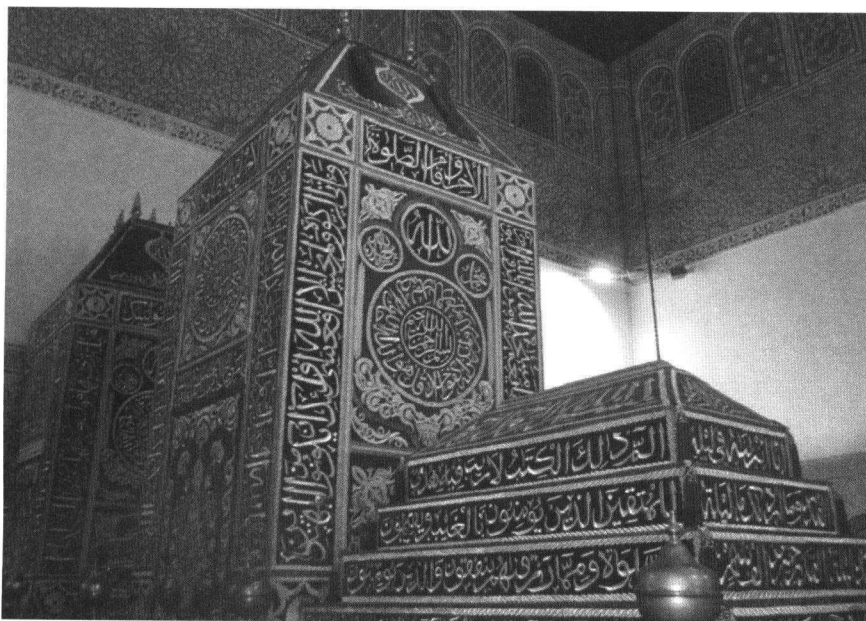
المدخل إلى ضريح مولاي ادريس عليه السلام (زرهون)



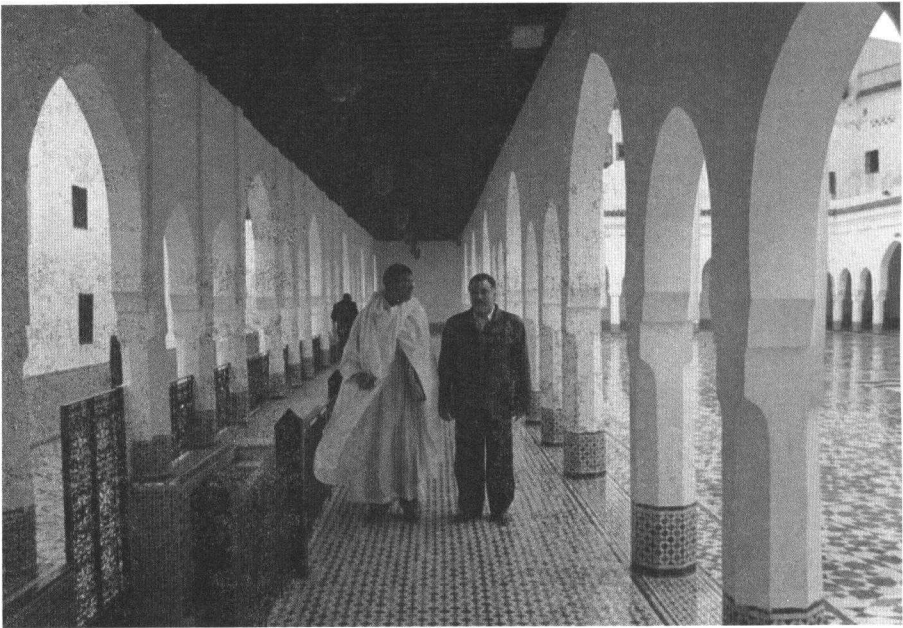
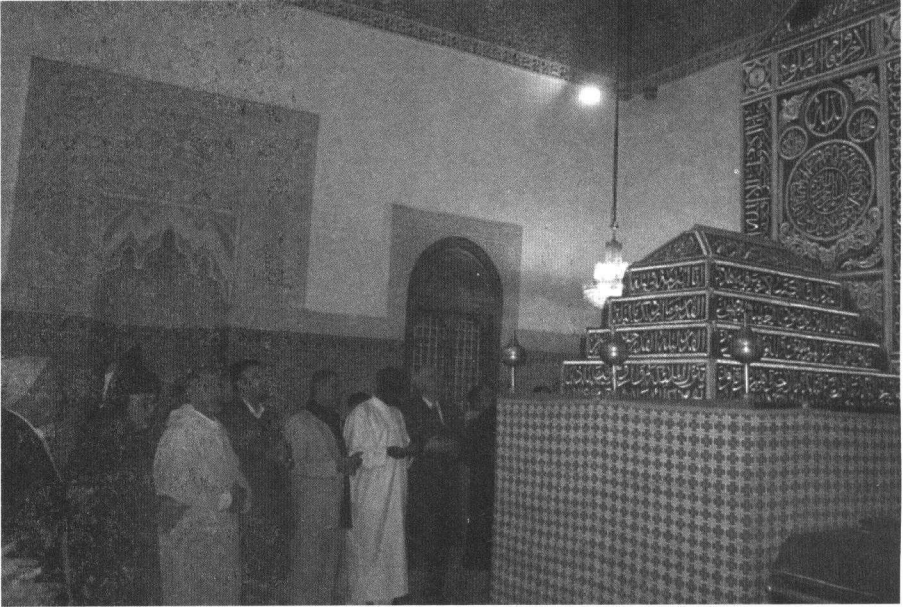
منارة ضريح مولاي ادريس عليه السلام (زrhون)



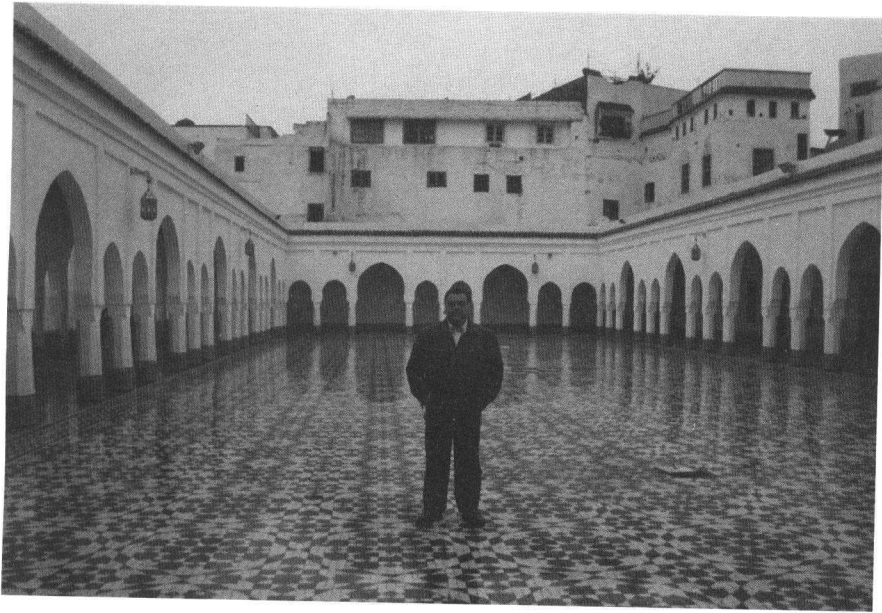
ضريح المولى راشد خادم سيدنا ادريس (ع)



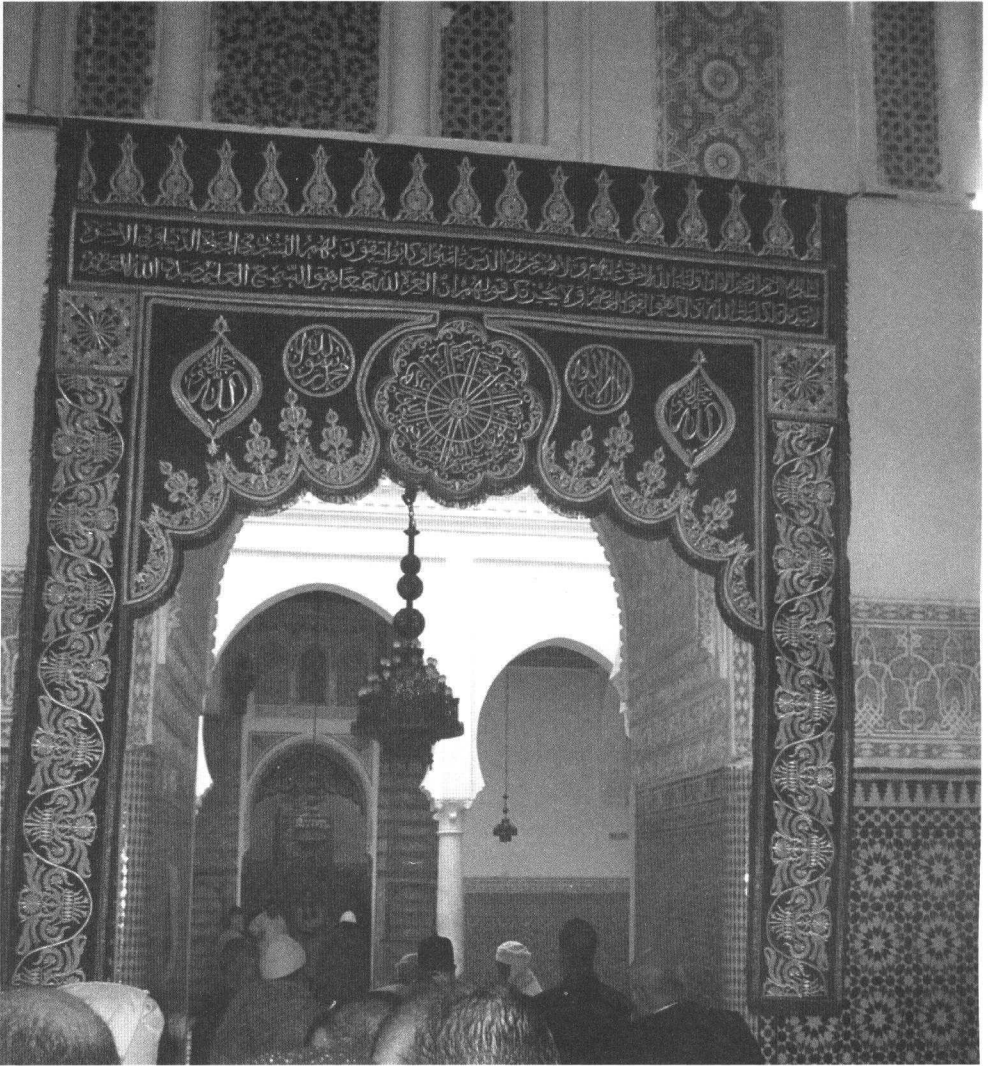
الطريحي أمام مرقد مولاي ادريس عليه السلام



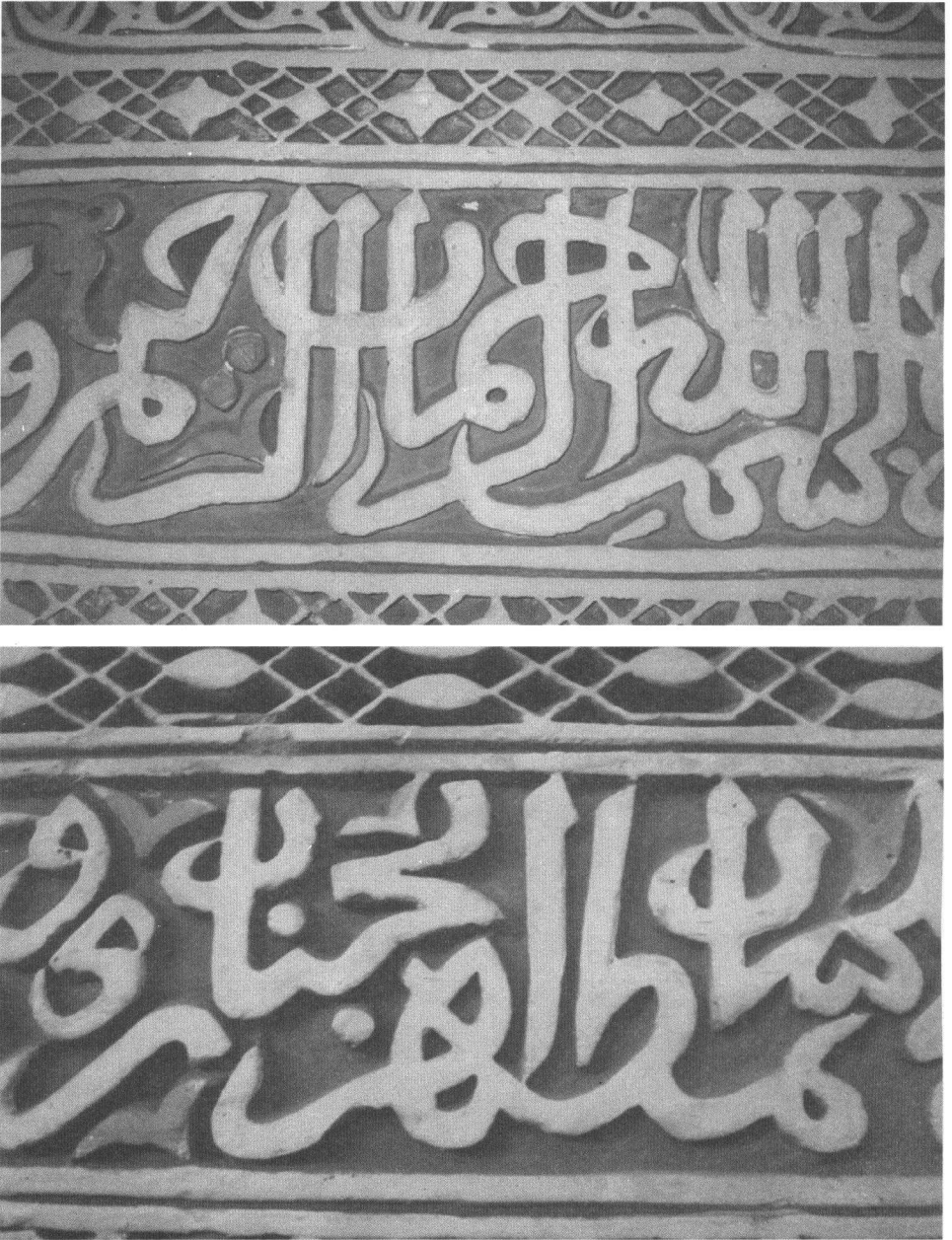
عند مرقد مولاي ادريس



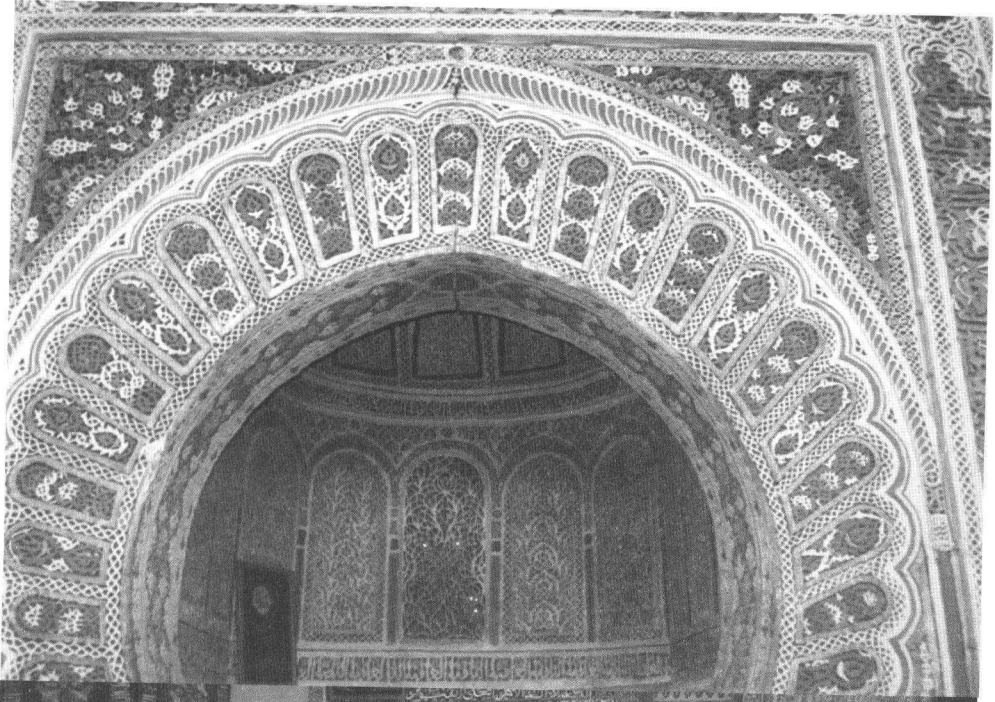
الصحن المجاور لمرقد مولاي ادريس



مشهد مولاي إدريس (ع)



شريط كتابي (مشهد مولي ادريس)



وقفة مع ثلة من الزائرين المغاربة إلى مشهد مولاي إدريس عليه السلام

ثم لما علم بما صار إليه أخوه ونهايته دعا لنفسه. كان الهدف إذن من مجيئه المغرب هو الدعوة على كل حال. وقد نفذ تلك الخطة المرسومة لذلك. هكذا كان تنقل المولى ادريس في رحلته يقترن فيه الخوف والتستر بالدعوة، والرغبة باليقين، وهو يتربح أولئك الذين يتطلعون للدعوة و ينتظرون قدومه، مستعدين لمناصرتهم؛ من بني عمومته الذين استقروا في أفريقية وتلمسان، ومن البربر الذين تابعوهم أو ربطتهم بالمولى ادريس صلة. يقول ابن الآبار: "فأما ادريس فلحق بالمغرب ولجأ إلى أهله فأعظموه" وبهذا نفسر دخوله تلمسان بدون حرب وتسليمها صلحاً. والكلمة التي استعملها ابن أبي زرع لذلك أدق وأوضح إذ يقول: "ثم خرج في نصف رجب المذكور برسم مدينة تلمسان"^(١). وبهذا يشرح الفقيه العلامة أبو العباس أحد بن المواز عدم تعرض أولاد المولى ادريس لقطر عين الحوت الذي كان تحت ولاية أبناء عمهم سليمان. قال: كما بسطه التنسي في الدر والعقيان^(٢). هذا ما أخاف الرشيد من استفحال أمر المولى ادريس، غير الذي قيل من أن تلمسان باب أفريقية ومن فتح الباب أوشك أن يدخل الدار. إذ اتضح أن الدعوة انتقلت في اتجاه المشرق^(٣) في مرحلة مهمة لدخول الناس فيها عن طواعية. مهابة منهم واستعظاماً لهذا الأمر ولصاحبه. أو اقتناعاً بها. وللاتقاء أطراف المغرب عليها وتكاثف أبناء العمومة حولها. واتضح ولا شك للرشيد الاستعداد الكبير الموجود في تلك الناحية لتقبل الدعوة وأن امتداد هذا الاستعداد في باقي الأطراف حتى أفريقية يُنذر بالخطر الذي لا يمكن السكوت عنه.

منذ انطلق المولى ادريس في رحلته هذه كان يهدف إلى الدعوة، وعمل لها خلال رحلته حيثما حل، ويُقدر أن ذلك ابتداءً منذ أن اجتاز المسالح في حدود مصر ووصل برقة على موعد مع صاحبه راشد، فكان في بداية الرحلة خائفاً يترقب ينتقل في حيلة وقد حاقت به الأوهام، وحفت به المخاطر وقد وصف حاله قائلاً: "واعلموا معاشر البربر أنني أتيكم وأنا المظلوم الملهوف الطريد الشريد الخائف الموتور الذي كثر واطره، وقل ناصره، وقتل أخوته وأبوه وجده وأهلوه.."^(٤) فاستغرق ذلك وقتاً غير يسير. ثم مضى إلى القيروان وبقي فيها مدة يباشر أموره ويصلح حاله، ومنها رحل إلى تلمسان حيث أقام بها

(١) القرطاس ص ٢٢.

(٢) حجة المنذرين على تنطع المنكرين ص ١٢٢.

(٣) انظر الرسالة الموجهة من المولى ادريس إلى أهل مصر، التي تحدث عنها المرحوم العلامة علال الفاسي (مجلة الوثائق العدد ١ ص ٥٥) وحلها الدكتور عبد الهادي التازي في مجلة المناهل العدد ١١ ص ١٠٥ - ١٢٠.

(٤) المولى ادريس الأكبر مجلة الوثائق العدد ١ ص ٤٣.

يتصل ببني عمومته فيها ويرسم الخطط ويرسل البعثات وييث الدعاة ويلاقي المؤيدين. في سرية.. ولقد استفاد المولى ادريس ولا شك من المحن التي أصابت من سبقوه في هذه الدعوة ومن التجارب التي ساروا عليها؛ فكان في بعضها هلاكهم وفي بعضها الآخر سبب دفع بالدعوة إلى سبيل النجاح.. ولهذا بنى سياسته على الجهاد باليد واللسان. فبدأ بالجهاد باللسان أولاً؛ وبين طريقته بالدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة والنصيحة، والحض على طاعة الله، والتوبة عن الذنوب بعد الانابة والاقلاع والتزوع عما يكرهه الله، والتواصي بالحق والصدق والصبر والرحمة والرفق، والتناهي عن معاصي الله كلها، والتعليم والتقديم لمن استجاب لله ورسوله حتى تنفذ بصائرهم وتكمل وتجتمع كلمتهم وتنتظم". فإذا وصلوا إلى هذه المرحلة، أظهروا دعوتهم، وندبوا العباد إلى طاعة ربه^(١). ولقد تطلب منذ هذه اللحظة وقتاً ولزم ابقاؤها جهداً ورجالاً. وهكذا استمر في ذلك إلى أن وصل منطقة طنجة ووليلي. وكان ذلك سنة ١٧٢ هـ فأعلن دعوته وبدأ الجهاد من أجلها "باليد".

وصف المولى ادريس أنه كان على مذهب الاعتزال. ولقد كان هذا المذهب موجوداً بين البربر في المغرب^(٢). وربما كان هناك خيط يربط بين هذا وبين اتجاه المولى ادريس إلى المغرب. وكان المعتزلة في بلاد طنجة التي نزل بها المولى ادريس حين حل بالمغرب وكان اسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي الذي آوى المولى ادريس ونصره ومكن لدعوته بين البربر، معتزلياً. وقد قرنت هذه الصفة باسمه في بعض المصادر يقول ابن الفقيه في مختصر كتاب البلدان: "والغالب عليها (بلاد طنجة) المعتزلة. وعميدهم اليوم اسحق بن محمد بن عبد الحميد وهو صاحب ادريس"^(٣). واستمر الاعتزال في عقيدة بربر تلك النواحي بالمغرب. إلى القرن الثالث الهجري كما يوضحه قدامة بن جعفر في كتاب الخراج فيقول: "ووراء تاهرت مسيرة أربعة وعشرين يوماً، بلد المعتزلة وعليهم رئيس عادل وعدلهم فائض وسيرتهم حميدة ودارهم طنجة ونواحيها"^(٤) قيل هذا، وقيل في عبارة موجزة ما يفيد أن المولى ادريس معتزلي المذهب، وغموض هذه العبارة يفيد تلقيه هذا الاعتزال من عبد الحميد الأوربي. كما يفهم منها وجه آخر. أن المولى ادريس هو الذي

(١) نفس المصدر الأكبر. مجلة الوثائق العدد ١ ص ٤١.

(٢) انظر: صور الأرض لابن حوقل ص ٩٣ - ٩٤ و ٩٩ - ١٠٠.

(٣) مختصر كتاب البلدان ابن الفقيه. ص ٨٠ طبع ابريل ١٨٨٥.

(٤) كتاب الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٦٥ طبع بريل ١٨٨٩.

دفع عبد الحميد إلى مذهب الاعتزال. وهي كما وردت عند البكري: "فتزل (يعني المولى ادريس) على اسحق بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي. فتابعه على مذهبه"^(١).

فإذا أخذنا بالاعتبار ظاهر الكلام يكون اسحق المعتزلي هو الذي وافق ادريس غير المعتزلي. وإن رجعنا إلى عبارة ابن أبي زرع، اتضح الاحتمال الأقرب إلى الواقع أكثر، يقول: "فتزل بها (أي وليلي) ادريس رضي الله عنه على صاحبها اسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي. فأقبل عليه اسحق وأكرمه وبالغ في بره فأظهر له المولى ادريس أمره وعرفه نفسه. فوافقه على حاله وأنزله داره وتولى خدمته والعناية بشؤونه"^(٢) فوافقه على حاله يعني أن اسحق وافق المولى ادريس على الدعوة التي كان يدعو لها، لآل البيت والطريقة التي اتخذها لذلك، والخطط التي خطها من أجله، لا على الاعتزال الذي لم يشر إليه إلا في اسم اسحق كما لم يشر إلى "المذهب" إطلاقاً.

وتعبير ابن الفقيه أكثر صراحة في ذلك إذ يقول: "وادريس موافق له" فإن كانت الإشارة عنده فيما سبق من الكلام إلى المعتزلة وإلى عميدهم عبد الحميد، فإن عبارته هذه تعني أنه لا يخالفه في مذهبه من غير أن يلزم عن ذلك تمذهبه بمذهبه الاعتزالي.

وإما أن أخذنا بالوجه الآخر للكلام، كما هو عند البكري فاعتبرنا عود الضمير على المولى ادريس. فيكون المعنى: أن المولى ادريس تابع اسحق المعتزلي على اعتزاله. ولن يتم هذا المعنى - عى كل حال - إلا إذا اعتبرنا "المعتزلي" وصفاً لا جزءاً من الاسم لكن يصح مع ذلك معنى آخر هو أن المولى ادريس تابع اسحق على رأي من آراء الاعتزال في مشكلة من المشاكل أو فرقة من فرق المعتزلة لا على أصل الاعتزال نفسه الذي هما عليه معاً بالضرورة!

ففي الوجه الأول، واضح أن المولى ادريس لم يكن معتزلياً قبل ذلك. أما الوجه الثاني فالإشارة فيه إلى أن المولى ادريس كان على مذهب غير الاعتزال عند قدومه للمغرب في وفادته على اسحق. وأنه لم ير مانعاً عقائدياً في مذهبه يمنعه أن يتابع اسحق على الاعتزال ولا يعني ذلك انحرافاً عن عقيدته ومذهبه، ولا تغييراً لدعوته، وإنما هو امتداد التجاوب المعروف تاريخياً بين ما كان يعتقد المولى ادريس، وبين مذهب الاعتزال فالعدل في كليهما من أسس المذهب. وكلاهما يعتمد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامة لهما،

(١) المسالك والممالك ص ١١٨.

(٢) القرطاس. ص ١٩.

وكلاهما يتطلع إلى مليء الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً..^(١) ولعل هذا يُضاف إلى الأسباب التي دفعت بالمولى ادريس للهجرة إلى بلاد المغرب.

العقيدة التي كان يؤمن المولى ادريس بها: هي التشيع الزيدي^(٢) وابن خلدون يقرر أن بني حسن بصفة عامة زيدية فيقول إنه: "بموت يحيى، انقرض شأن بني حسن وخفيت دعوة الزيدية حيناً من الدهر حتى كان منهم بعد ذلك باليمن والديلم ما نذكره والله غالب على أمره"^(٣) ويشير في مكان آخر، أنه كان الزيدية من بين شيعة ابن طباطبا قائلاً في ذلك: "وكان منهم محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ولقبه أبوه طباطبا. وكان شيعته من الزيدية وغيرهم يدعون إلى امامته.."^(٤) ونلاحظ أن الانتماء إلى الزيدية أيضاً كان هو التهمة التي وجهها الرشيد إلى أحد أعضاء هذه الأسرة وهو عبد الله بن الحسن بن علي بن علي بن الحسن بن علي أبي طالب الملقب بالأفطس وكان ممن حارب في وقعة فخ وأبلى فيها. يقول أبو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبين: "حدثني أحمد قال: حدثنا يحيى قال: حدثنا عبد الله بن عمر أن الحسين صاحب فخ، أوصى لى عبد الله بن الحسن بن علي بن علي، إن حدث به حدثٌ فالأمر إليه قال: فوجه الرشيد من وقته إلى المدينة، فأخذ عبد الله فجيء به فلما دخل عليه قال له: "بلغني أنك تجمع الزيدية وتدعوهم للخروج معك"^(٥) وطبعاً لم يكن يُظهر ما يثبت التهمة في هذه اللحظة الحرجة. ولم يكن لينفعه ذلك. فعُذب بهذه التهمة، وسجن حتى مات وكذلك أقام هذه التهمة على يحيى بن عبد الله أخو ادريس، رجل رآه يصلي صلاة بعد الزوال ظنّها العصر ركعتين فقط، يطيل فيهما، فأقر الرشيد التهمة^(٦). ومن أصحاب يحيى بن عبد الله من أهل الكوفة أبو الحسن بن صالح بن حسن. كان يذهب مذهب الزيدية البترية في تفضيل أبي بكر وعمر، وعثمان في ست سنين من امارته ويكفره في باقي عمره ويشرب النبيذ ويمسح على الخفين. كان هذا الزيدي يخاف يحيى في أمره ويفسد أصحابه. فإن ثبت أنه لم يكن يوافق كل الموافقة

(١) اظر وثيقة المولى ادريس إلى البربر (مجلة الوثائق العدد ١ ص ٤٢) وانظر أيضاً كتاب الشيعة والمعتزلة. وكتاب: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة. للسيد هاشم معروف الحسيني.

(٢) يصل المرحوم العلامة غلال الفاسي في دراسته القيمة عن المولى ادريس إلى القول عن مذهبه: "فكل ما يمكن أن يقال عن المولى ادريس أنه كان من الوجهة السياسية مع الزيدية وحاشا أن يكون مع الجارودية. وهذا ما مهد لبعض قدماء المؤرخين أن يقولوا باعتزله. فالمولى ادريس كان سنياً زيدي الاعتقاد السياسي ص ٤٦.

(٣) تاريخ ابن خلدون الجزء الرابع ص ٤٦.

(٤) نفس المصدر ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٦.

(٥) مقاتل الطالبين ص ٧٩٣.

(٦) نفس المصدر ص ٤٦٧.

على هذا الرأي في مذهب من الزيدية. فإن الثابت أيضاً أنه كان من أصحابه، فهو لم يكن يراعي في هذه الصحبة إلا المذهب الأصلي الذي هو الزيدية^(١).
 أما عن عقيدة المولى ادريس فقد رأينا تعاطف الشيعة معه، وكيف اجتاز مصر بمساعدة واضح الشيعي^(٢) وطائفة من الزيدية قد جعلته فيما ينقل ابن خلدون الإمام بعد أخيه محمد بن عبد الله النفس الزكية^(٣). وجاء اختيار سليمان بن جرير الزيدي للقيام بمهمة اغتيال المولى ادريس بناء على توفر عناصر كبيرة في شخصيته من ذكاء وفطنة وتضلع في علم الكلام ودراية بالفقه^(٤) ومعرفة بأساليب الدفاع عن حق آل البيت. وبناء على أنه من متكلمي الزيدية البُتريّة^(٥)، وكانت له امامة فيهم، ومن هذا اغتر المولى ادريس، فقبل وفادته وأنزله منزلاً رفيعاً^(٦) فمت إليه بمذهبه وقال: إن السلطان طلبني لما يعلمه من مذهبي، فحجنتك، فأنس ادريس به واجتباها وكان ذا لسان وعارضة وكان يجلس في مجلس البربر فيحتج للزيدية. ويدعو إلى أهل البيت كما كان يفعل فحُسن موقع ذلك من ادريس^(٦).
 مذهب ادريس إذن، هو مذهب الشيعة الزيدية. فإذا علمنا أن فرقة الجارودية منهم، تقول منكرًا من القول، وجب أن يبعد عنه الانتساب إلى هذه الفرقة كما قال بذلك المرحوم العلامة علال الفاسي^(٧) ونعلم أيضاً أن فرقة البُتريّة من الزيدية، تقول بتكفير عثمان بن عفان في ست سنين من امارته. وهذا ما نثره المولى ادريس عن اعتقائه والقول به، فهل تكون الجريرية ثلاثة فرق الزيدية الثلاث^(٨)، هي تلك التي ينتسب إليها؟ ولا يليق هذا أيضاً لما في مذهب الجريرية من تحامل وغلو في اتهام عثمان وعائشة والزبير وطلحة.

(١) انظر مقاتل الطالبين ص ٤٦٨.

(٢) قال عنه البعض "الشيعي" واكتفى آخرون بوصفة بـ "المتشيع" وقال آخرون "الرافض".

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٩ طبع الزين.

(٤) قال المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضي بن فضل بن منصور الحسيني اليماني (م. ٨٤٠ هـ) في كتابه: "المنية والأمل في شرح الملل والنحل" (ص ٢١) وتشيع في كبار السلف.. ومن المعتزلة الاسكافي .. ومن القهءاء سليمان ابن جرير، وكثير النوي.

(٥) يقول صاحب كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل عن فرق الزيدية: "الزيدية: جارودية وبتريّة. وأما البتريّة أصحاب الحسن بن صالح فذهبوا إلى أن الامامة شورى تصح بالعقد وفي المفضول. ويقولون بامامة الشيعين مع أولوية علي عليه السلام عندهم. وعندما سموا بتريّة لتركهم الجهر بالبسملة بين السورتين. وقيل لما انكر سليمان بن جرير النص على علي عليه السلام، سماه المغيرة بن سعيد (فان بن شعبة) أتبر" ص ٢٠.

(٦) مقاتل الطالبين ص ٤٨٩.

(٧) قال: "وحاشا أن يكون مع الجارودية". (مجلة الوثائق العدد ٢ ص ٤٦).

(٨) ذكر في ذلك صاحب كتاب: المنية والأمل في شرح الملل والنحل: "قلت، وانتهت فرقهم (الزيدية) إلى ست: جارودية، وبتريّة، وبالبتريّة صالحية وجريرية وافترق متأخروا الجارودية إلى مطرقية وحسينية ومختزعة. فهذه ست كما ترى.. فالجريرية أصحاب سليمان بن جرير وأما الصالحية فهم أصحاب الحسن بن صالح. فذهبوا إلى أن الامامة تصح بالعقل كقول المعتزلة. وتصح الامامة عندهم في المفضول، ويقولون إمامة الشيعين مع أولوية علي عليه السيد عندهم.

ولكننا نتبين في شخصية المولى ادريس هدفاً أسمى يصرفه عن الاشتغال بالانتساب إلى هذه الفرق المستحدثة عن الزيدية جملة وعمما تفرع عنها، والخوض فيما خاضوا فيه.. حريصاً على الأصل لقد أصبح يحمل أمانة آل البيت وكان همه أن يبحث عن مآمن لها وأن يدعم بناءها ويرسي قواعدها. ويوفر لها سبل النجاح.

لكن لماذا لم يعلن المولى ادريس عن هذا المذهب بعد ظهور أمره ورسوخ دولته؟ ولماذا لم يدع الناس للأخذ بهذا المذهب؟ ولماذا لم يوضح أمر امامته الشرعية وبالملاسات التي كانت تراه الشيعة؟

لقد دعى المولى ادريس البربر إلى كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وإلى العدل في الرعية، واحياء السنة وإماتة البدعة، وانفاذ حكم كتاب الله على القريب والبعيد. كما ورد في مطلع عهده إليهم. ثم إن في تقديم نفسه للبربر والشهادة على استجابته هو، للدعوة كما جاء في آخر هذا العهد تعبير واضح على ذلك. وبايعه البربر على القيام بأمرهم وولوه صلاحهم وأحكامهم وغزوهم. وكان طرح القضية بهذا الشكل والاستجابة بهذا النحو كافٍ للدلالة على أنه طرح موضوع إمامته وأن البربر قبلوها وأقروه عليها ثم أنه لم يدع لنفسه إلا بعد قتل أخيه يحيى الذي كان له ذلك الحق قبله. وفي ذلك الدليل على أنه ندب نفسه لتحمل هذه الأمانة.. صحيح أنه لم يلقب رسمياً بلقب "الإمام" ولا صرح به حتى في أيامه الأخيرة وبعد فتوحاته وانتصاراته. فنلاحظ مثلاً في تخليده لدخول تلمسان وبنائه مسجدها وإقامة منبرها، حيث أمر أن يكتب على المنبر: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وذلك في صفر سنة أربع وسبعين مئة" دون الإشارة إلى "الإمام" ولكن هذه القضية لم تكن لتطرح حينئذ بهذا الاصرار. كما أن قضية الامامة نفسها لم تكن إلى ذلك الحين قد اتخذت الشكل العقائدي الواضح المعالم. غير أن المولى ادريس كان يسمع من يدعو بهذا اللقب، أو يعتقد فيه فلا يعارضه بل يستحسنه. كما كان الأمر في إقامة سليمان بن جرير بمحضرة الدلائل على امامة ادريس رضي الله عنه وأنه الامام^(١) لا امام غيره. أما عن اعلان المذهب الشيعي الزيدي ودعوة الناس إليه فإن اهتمام المولى ادريس منذ اللحظة الأولى كان هو نشر الاسلام على نطاق واسع بين مختلف قبائل البربر المغربية التي كن أغلبها يدين باليهودية والنصرانية. ثم عاود هذه الحملة التطهيرية، وأردفها بأخرى حتى اسلمت له بلاد تامسنا وتادلا مهدياً لارساء أسس دعوته

(١) أعمال الاعلام: الجزء الثاني ص ١٩٣ والقرطاس ص ٢٢ - ٢٣.

غير أن هذه الدعوة فوجئت، وقد تم التحام أجزائها بفتح تلمسان باختفاء المولى ادريس غيلة. وليست المدة القليلة التي تولى الأمر فيها المولى ادريس لتسمح بأكثر من هذا، حتى يعلن عن المذهب ويسعى لنشره.

وإننا لنرى اتصال خيوط هذه الدعوة، ومبادئ المذهب واستمرار ذلك، والسياسة المتخذة لأبنائه في تلك البيانات المذهبية التي بدأ بها من تولى زمام ذلك في بداية الاقدام على الجهاد من أجله يقول الحسن بن علي بن الحسن صاحب فخ:

"أبايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله، وعلى أن يطاع ولا يُعصى وأدعوكم إلى الرضا من آل محمد وأن نعامل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وآله والعدل في الرعية والقسم بالسوية وعلى أن تقيموا معنا. وتجاهدونا عدونا. فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا. وإن نحن لم نوف لكم فلا بيعة لكم علينا"^(١).

وفي نفس الخط وعلى نفس النهج والأسلوب، يقول المولى ادريس في عهده للبربر. مع الفارق البسيط في قوة إيمانه بعدالة القضية ووثوقه بنجاحها. وبوادر النصر قد ألمعت لبصره "أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم" ثم يختمها قائلًا "هذه دعوتي العادلة غير الجائرة، فمن أجابني فله ما لي. وعليه ما علي. ومن أبي فحظه أخطأ، وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة أني لم أسفك دما ولا استحلت محرماً ولا مالاً"^(٢).

ويقول في أول كلمة خطب بها البربر بعد بيعته: بعد الحمد والصلاة على بينه صلى الله عليه وآله وسلم "أيها الناس لا تُمدُّ الأعناق إلى غيرنا فإن ماتطلبونه من اقامة الحق لا تجدونه عند غيرنا"^(٣) وهذه هي الروح التي وجدت في ادريس بن ادريس، تجلت في الكلمة التي خاطب بها البربر عندما بايعوه: ".. أيها الناس! إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر وللمسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تُمد الأعناق إلى غيرنا، فإن ما تطلبونه من اقامة الحق إنما تجدونه عندنا"^(٤).

وإلى عهد ادريس بن ادريس لم تكن الظروف في صالح ظهور المذهب لأسباب تتحاشا الحديث عنها الآن، إلا جزئياً في بعض مظاهر الدولة مثل السكة التي عثر على القديم منها مؤرخاً بسنة ١٨٥هـ و ١٨٩هـ كتب عليها الإشارة إلى مكان ضربها بـ "العلية"

(١) مقاتل الطالبين ص ٤٥٠.

(٢) وثيقة المولى ادريس مجلة الوثائق العدد ١ ص ٤٣.

(٣) تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع ص ٢٤.

(٤) القرطاس ص ٢٨.

وهي نسبة إلى سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ويراد بها مدينة فاس^(١). والسكة الادريسية بعد هذا التاريخ لا تكاد تخلو من اسم "الإمام علي بن أبي طالب" وقد كتب في إحداها: "على خير الناس بعد النبي كره من كرهه ورضي من رضي"^(٢) وفي تسمية أحد أبناء ادريس بـ "عليشاه"^(٣) (علي شاه).

فلما بدت الظروف مواتية فيما بعد في أعقاب المولى ادريس، أظهروا تشيعهم وأعلنوا تمذهبهم كما هو الأمر بالنسبة لأبي العيش الحسن بن كتون آخر من تولى الأمر منهم بالمغرب سنة ٣٧٥ هـ. وبالخصوص في أيام بني حمود الذين أعلنوا المذهب الشيعي بالأندلس بعدما أجلوا عن المغرب.



(١) الاسلام في المغرب والأندلس. تأليف: ليفي بروفنسال. ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صالح الدين حلمي. مكتبة هخمة مصر ومطبعتها.

(٢) Compus des dirhames Idrissites et contemporains. Rabat. P. 70 – 71

(٣) صحب الأعشي، الجزء الخامس ص ١٨١. ويجب هنا ملاحظة التسمية الشائعة بين البربر إلى اليوم بـ: "علوش". عن مجلة كلية الأدار والعلوم الانسانية بفاس سنة ٨٠ - ١٩٨١.